تلعفر بعد عملية (استرداد الحقوق)

هدوء حذر وبؤر تهدد بالعودة

صافي الياسري

لم نتمكن في زيارتنا الأولى اواخر الشهر الماضي من دخول المدينة ، فقد كانت العمليات العسكرية تجري على قدم وساق لتطهيرها من المسلحين الذين عاثوا فيها فساداً ، وقد شارك في هذه العمليات ، الجيش العراقي بمعدل ستة الاف جندي والقوات متعددة الجنسيات بمعدل ٤,٥٠٠ جندي مدعومين بتشكيلات من الطائرات والدبابات الاميركية إضافة الى عدد من مغاوير وزارة الداخلية ، وبعد يومين من بدء العملية عقد قائممقام تلعفر السيد نجم عبد الله مؤتمراً صحفياً في مبنى المحافظة حضره محافظ الموصل السيد دريد محمد كشمولة واجاب فيه عن اسئلة الحاضرين من الصحفيين والاعلاميين معتذراً عن عدم السماح لهم بزيارة المدينة في ذلك الحين لاسباب أمنية وبانتظار اكتمال تطهيرها ، وقال انه تم رفع منع التجوال في المدينة لوقت محدد توخياً للحذر لوجود عبوات ناسفة والغام مزروعة في اماكن غير معلومة من المدينة.

واضاف ان عملية اقتحام وتطهير المدينة مبررة، لان الحياة فيها كانت مشلولة تماماً، فالمدارس مغلقة ويستوطنها المسلحون، وكذلك دوائر الدولة معطلة، والمدينة تعاني من انفلات امني كبير ودائم حيث كنا نخسر يومياً عشرات الضحايا قتلى وجرحى، رجالاً ونساءً واطفالاً يستهدفهم القناصون بمجرد رؤيتهم ولا يفرقون بين الشيخ والشاب والطفل وطائفة البيات وسيدلر، وايلخانيلر، ومرادلي، وشيخلر، وبايالار وجولامالار. وفي وسط المدينة تل كبير يدعى (القلعة) ويقسم المدينة قسمين نهر تلعفر، ومن أهم احيائها، قصبة سراي، والقلعة وحسن كوي وسنجار صور وكركري وجلبي وكورد علي وجولاق وقد سجل التاريخ للمدينة ثورتها المشهودة في وجه الاحتلال الانجليزي التي دعيت في حينها "ثورة تلعفر".

الإرهابيون صعدوا نشاطاتهم في مناطق أخرى من العراق لتخفيف الضغط عن أوكارهم في تلعفر

وأخرى، وذكر القائممقام ان العملية لم تكلف سوى سبعة شهداء و٣٥ جريحاً (ولا يمكن اخذ احصائية القائممقام مأخذ الجد فقد سمعنا ارقاماً اخرى متضاربة سنأتي على ذكرها) وقال ان معظم هؤلاء سقطوا لأنهم لم يلتزموا بالتعليمات، ولاسيما في منطقة البساتين (هذه المنطقة لجأ اليها المسلحون باعداد كبيرة كما يفيد سكان المدينة)

.

اما محافظ الموصل فانه اعلن عن تشكيل لجنة من ٩ وزارات برئاسة وكيل وزارة التخطيط للاشراف على اعادة اعمار المدينة وستتولى هذه اللجنة تنفيذ الفقرات الأساسية والمهمة من المشاريع المتمثلة بايصال الماء والكهرباء وإعادة تأهيل الشوارع والخدمات البلدية وكان قائممقام تلعفر كما صرح قد اقترح على هذه اللجنة القيام بهدم الاحياء القديمة وتخصيص مساحات واسعة مضافة من الاراضي وتوزيعها على المواطنين وتوفير القروض لهم لبناء دور سكن تعويضاً لهم عن دورهم القديمة ومعاناتهم.

تلعفر حاضراً وتاريخاً

وتلعفر تعد من اكبر الاقضية في العراق واقدمها وتتبع محافظة الموصل ادارياً، وتبعد عنها ٧٠ كلم الى الغرب وتقع على حافة البادية بين الموصل وسنجار قريباً من الحدود العراقية السورية، وتقوم حولها قرى وضياع تعود لعشائر شمر والعبيد في الغالب فضلاً عن عشائر اخرى، وفي العهد الملكي كان ثمة مقترح لاعدادها لتكون مركز لواء، ولكن كل الحكومات التي تعاقبت على العراق صرفت النظر عن هذا المقترح بسبب سياساتها الطائفية التمييزية فالمدينة تسكنها اغلبية عرقية تركمانية من المذهب الجعفري، ومن أهم العشائر التركمانية التي استوطنت المدينة حتى اليوم، هي عشائر

تلعفر والمسز بيل

كتبت المسز بيل عن مدن العراق بوجه عام تقريباً ومنها مدينة تلعفر مؤرخة لحياتها في العراق بين عامي ١٩١٤ - ١٩٢٦ في كتابها المعروف- (العراق تحت الوصاية البريطانية) ، وقد اوردت ذكر تلعفر عدة مرات في هذا الكتاب الذي ترجمه جعفر الخياط.

جاء في الصفحة ٦٩ من هذا الكتاب ان الماء الوحيد الموجود في الجزيرة هو ماء تلعفر، والينابيع التي تتفجر من اسفل جبل سنجار وبعض العيون اكثرها كبريتية وهي توجد اسفل خط الجبال الممتد من القيارة الى تلعفر.

وجاء في الصفحة ٧٠، وما حلت نهاية تشرين الثاني حتى كان الكولونيل لجمن قد اتم زيارة تلعفر وسنجار وزاخو والعمادية ودهوك وبيره كبره وعقره، وقد جاء والعلم التركي مرفوع في جميع هذه الاماكن كما وجد في اكثرها جنوداً وموظفين اتراكاً، فانزل العلم وعين معاوني الحكام السياسيين في المناطق التي تم احتلالها .

وتقول في الصفحة ٨٥ منه: وفي مختلف القرى المحيطة بالموصل شرع بفتح مدارس للمسلمين في خمسة اماكن مختلفة وقامت مدرستان للمسيحيين في مكانين، وهناك خمس مدارس حكومية اكبرها في تلعفر وعدد طلابها ثمانون طالباً (ومن الملاحظ انه رقم لا يستهان به في ذلك الحين فقد اعترفت المسز بيل قائلة : (ان احجاماً لا يستهان به حصل في تسجيل الاولاد في مدرسة تلعفر على أساس انهم سيصبحون افندية (أي من طبقة الموظفين الاتراك).

وكتبت المسز بيل الكثير عن تلعفر ولكن كلامها عن اكبر مدرسة في المنطقة وجدت في تلعفر يؤكد ان المدينة كانت قد أصبحت بوابة نهوض فكري وعلمي مهم جداً في ذلك الزمن الذي عمت فيه الامية والجهل كل العراق.

تلعفر والنظام المباد

مارس النظام المباد سياسة التغيير الديموغرافي في كل مكان تعيش فيه اغلبية من قومية غير عربية وتلك سياسة دأب عليها نظام البعث منذ اليوم الأول الذي تسلم فيه السلطة بعد انقلاب ١٧ تموز، ومدينة تلعفر واحدة من المدن التي تعرضت الى حملات التغيير هذه، وان كانت بدرجة اقل من تلك التي تعرضت لها كركوك، فقد اعتمد النظام سياسة القضم التدريجي ومع ذلك لم يتمكن من التوغل كثيراً في الجسد التلعفري ولاسيما المناطق الشعبية، بسبب رد الفعل الاحتوائي المسالم الذي تعامل به السكان، والاستجابة لرغبات وطلبات الحزب الحاكم والتجاوب ولو ظاهرياً مع طروحاته مما جنبهم شديد بطشه وان لم يجنبهم بطشه تماماً، فدفعت المدينة ما دفعت من ثمن من دماء شبابها ورجالاتها، ورحلت عنها عوائل بأكملها الى مجمعات متناثرة على ارض العراق لاسباب تافهة، واسكنت مكانها مجاميع منتفعة رضعت ثقافة الولاء للنظام المباد.

لتشكل هذه المجاميع -بعد سقوط النظام، بؤراً ينشط من خلالها ويستغلها ازلام النظام الذين فروا الى سوريا، وازلام وعناصر الحركات التي تدعي الانتماء الى الاسلام، وتنتهج التكفيرية واقصاء الآخر -بالذبح- والارعاب في الاقل بغية اخلاء المدينة من سكانها الأصليين واحتلالها بشكل كامل وتوسيع هذا الاحتلال الى بقية الأرض العراقية، وربما ارض بعض الدول المجاورة ايضاً.

العرب وتلعفر

العرب العرباء، والاعراب، الذين سمعوا (بثورة تلعفر الجديدة) التي تؤسس (لجمهورية تلعفر الاسلامية) التي ستمتد الى كل العراق والى دول اخرى، هللوا وصفقوا وزغردوا ورقصوا بحبور في (مولد الدم العراقي) الذي حرمناه كعراقيين وحللوه كما لا ادري ماذا اسميهم، وهؤلاء هم الذين وقفوا في وجه زيارة رئيس الوزراء الاردني- عدنان بدران- الذي اراد ان يؤكد للعراق والعراقيين ، ان خياراتهم لا تنحصر بدولة مجاورة واحدة، وعلى مثل هذا الفهم تحركت الجامعة العربية لايفاد عمرو موسى لعقد مؤتمر المصالحة الوطنية العراقي، نحن نعرف ان ماتوخاه الاردن - الرسمي- هو الحرص على انتماء العراق الى الاطار العربي اقليمياً بهوية لا تهدد ثوابت الاردن نفسها، فقد استشعر الجميع ان حريق العراق يمكن ان يأتي على الاخضر واليابس في كيانات اخرى في مقدمتها كيانات دول الجوار.

ويلخص الصحفي العربي صالح القلاب الصورة عن زيارة السيد رئيس وزراء الاردن الى العراق بالقول:

- وامعاناً في تشويه هذه الزيارة التي أرادها الاردنيون تحطيماً لجدار العزلة المضروب عربياً على العراق والحكومة العراقية، فقد اعتبرها محامو المرحلة الصدامية زيارة للمنطقة الخضراء في بغداد وليست للعراق والشعب العراقي ووصفوها بانها ستضر بمستقبل المصالح الاردنية مع هذه الدولة العربية المجاورة منطلقين من ان (المقاومة) منتصرة لا محالة وان نظام صدام حسين سيعود وان رقعة "جمهورية تلعفر الاسلامية" ستمتد لتشمل البلاد كلها ومعها ايضاً بعض البلدان المجاورة- ولكم ان تحزروا من هي هذه البلدان!!

تلعفر في اثناء عملية استرداد الحقوق

بعد ثمانية اشهر من احتلال -تلعفر- من قبل المسلحين وتهريب سلاح بكميات كبيرة اليها من دولة مجاورة واعداد متزايدة من الأشخاص تحت لافتة الجهاد، ضجت المنطقة كلها غرب الموصل حتى الحدود السورية- وتخطيء الصحف والوكالات والفضائيات بوصف تلعفر بالمدينة التي تقع شرق الموصل.

هنا يقول النقيب محمد برواري وهو احد ضباط البيش مركه الذين تم ضمهم الى الجيش العراقي (ومن الغريب ان وكالات الانباء الاخرى قالت انه ضابط يرفض ذكر اسمه) ان الجيش العراقي قتل ١٤ مسلحاً واعتقل ٣٥ منهم، ولاحق الجيش العراقي المسلحين في شوارع وازقة المدينة، في حين قال الكولونيل في الجيش الاميركي H.B ماكاستر (هذه المدينة لم تعد ملجأ للاعداء ولم يعودوا يسيطرون عليها لقد فروا) ولم يكن هذا الكولونيل مصيباً فمنطقة البساتين لم تكن قد اخضعت بعد.

وقال الميجور جيمس غاليفان من الفرقة الثالثة -مدرعات الجيش الاميركي- وهو في الحقيقة القائد العسكري الأساس للعمليات في تلعفر ان نحو ١٥٠ متمرداً قد قتل وانه تم اعتقال ٤٧٠ شخصاً وشاهدنا المعتقلين في صفوف واقفة وجالسة وقد قيدت ايديهم بالقيود البلاستيكية بقوة ، وقد احيطت مجاميع المعتقلين بالأسلاك الشائكة، ويقول احد ضباط البيش مركه- الا ترى انهم يحملون السلاح وقد قتلوا من سكان المدينة نسبة كبيرة ومع ذلك يفك الاميركان قيودهم ويربطونهم برفق والله انهم لا يستحقون الا الاعدام الفوري فنحن متأكدون من جرائمهم- زميلي المترجم الكردي خفف اللهجة في الوقت الذي قادنا فيه النقيب محمد برواري الى مخازن السلاح في احدى المدارس التي ضمت كما شهدنا ١٣ قذيفة هاون جاهزة ومدفعين ونحو اربعة اطنان من الذخيرة توزعت في انحاء المدرسة.

واضاف الميجر جيمس غاليفان من الفرقة الثالثة- مدرعات -في الجيش الاميركي ان نحو ١٥٠ متمرداً قد قتل وان الجيش الاميركي اعتقل ٤٠٧ مسلحين منذ بدء العمليات وحتى هذه اللحظات، مازال الرقم غامضاً فالضباط الاميركان لا يعرفون كم هو عدد القتلى الذين دفنهم السكان من دون ذكر اسمائهم أو اعدادهم خوفاً من (المتمردين) والضباط الاميركان أنفسهم لا يذكرون القتلى من غير الاميركان ،

اما البيش مركه -الجيش العراقي فقد ذكر محمد برواري الذي يحمل اليوم رتبة نقيب في هذا الجيش والذي رفض ان يقول اسمه لوكالات الأنباء في حينها -فيقول: امسكنا عشرين سورياً وأربعة افغان وسعوديين !

وافادنا المسؤول الاعلامي باللواء الثالث انه تم اعتقال (٢١) فرداً من (امراء الجيش) وهو مصطلح يعني امراء الإرهاب وقادته من الاسلاميين التكفيريين .

ومن الغريب ان يصرح أو يطلب -صالح المطلك- المتحدث باسم مجلس الحوار الوطني وهو تجمع سياسي حديث التشكيل- ان توقف الدولة عملياتها في تلعفر ونسي انه ظل ساكتاً ثمانية اشهر على ممارسات العرب والإعدامات والارهاب التي مارستها زمر الإرهاب التي يدافع عنها اليوم ويضعها في "خانة المقاومة" وهي التي اعدمت نساءً واطفالاً وشيوخاً يمكن لاهل تلعفر ان يقدموا لجنابه صورهم .

سأنقل لكم نصاً ما قاله المنشور الذي وزع علينا نحن الاعلاميين الذين زرنا - تلعفر- ونحمد الله اننا لم نذبح لاننا- أو لأنني في منطقة البساتين وقعت وحيداً في يد زمرة منهم وحين عرفوا اني صحفي من -المدى- وضعوا امامي بياناً -بعد ان وضعوا على رقبتي سكيناً - يقول البيان : "نحن الطائفة المنصورة" اخوانكم، وقد قامت مجموعة من اخوانكم المجاهدين بقصف معاقل الكفر والشرك في وزارة الداخلية ووزارة الخارجية والمنطقة الخضراء ومقرا لعملاء في مدرسة الأمن بالصواريخ البعيدة (الكيمائية) .

نعم (الكيميائية) كما نص البيان المكتوب، وللعالم كله ان يحكم.

أسراب النازحين متى تعود الى ديارها ؟

اهل المدينة

قلنا ان قضاء تلعفر هو اكبر قضاء عراقي وقد نجح المسلحون في تشريد اهله، لكنهم لم يبعدوا كثيراً، وحمداً لله ان كان صيفاً فلم يكونوا بحاجة الى الوقود او التدفئة والا فانهم كانوا يطبخون على جذوع الاشجار التي تمكنوا من قطعها، واشترى المتمكنون منهم النفط والغاز الذي بيع باغلى الاسعار اما المساعدات الغذائية الانسانية، فقد تم التلاعب بها، وشكا السكان صراحة انها تم الاستيلاء عليها من قبل (المسلحين) أو تمت سرقتها ممن وكلوا أنفسهم أو نصبوها نيابة عن الناس الذين تقاسموا الخيام- أو العراء- عدا مناطق البساتين التي لم يجرؤا احد على دخولها لانها أصبحت اوكاراً للمسلحين .

الجعفري وتلعفر

هدد "مقاتلو الجيش الاسلامي" و"الطائفة المنصورة" في بيانات انترنيتية لهم انه إذا لم يتم وقف الهجمات على -تلعفر- فانهم سيهاجمون مقرات الحكومة بالصورايخ الكيميائية واهدروا دم رئيس الوزراء ابراهيم الجعفري ووضعوا على رأسه جائزة قدرها (١٠٠) الف دولار، ولكن الجعفري تحداهم وزار تلعفر تحت حماية مشددة .

وتعترف الولايات المتحدة الاميركية انها كانت تحاول اخماد التمرد في تلعفر منذ ايار الماضي من دون جدوى، ويقول العراقيون انه لم تكن هناك جدية في تطهير المدينة بينما يقول السيد ماكسماثر القائد العسكري لاميركي انهم يسعون الان لتحرير المدينة.

المدينة بعد العمليات

فسح المجال لنا بوصفنا إعلاميين ان ندخل المدينة لكن كل قوى السيطرة رفضت ان تسمح لنا بادخال آلة التصوير، فهم يقولون سنزودكم بما تريدون من صور- فيما بعد- اتركوا لنا عناوينكم فقط.

العائدون الى المدينة مازالوا على رعبهم القديم وهم يفتقدون الكثير من احتياجاتهم المادية وليس في المدينة من خدمات على عكس ما يدعيه قائممقام المدينة وادارته، ولم تمنح القوات العسكرية حتى هذه اللحظة. بوابة مفتوحة لعودة المواطنين الى بيوتهم، التي يتمنون انها لم تسرق فليس ثمة حراسة عليها، وفي الاغلب ان قوى الظلام من المتمردين والمسلحين المعارضين والارهابيين قد وفروا الفرصة للصوص والسراق بدلاً من ان يواجهوهم.

العودة الى الديار

النازحون التلعفريون الذين اجبرتهم نيران الاعداء والأصدقاء على النزوح ومغادرة بيوتهم، بدأت اسرابهم بالعودة الى بيوتها.. ومع ذلك كنا نقف على مداخل شوارع منطقة السراي وهي المنطقة الأهم في المدينة، ومع النقيب محمد برواري، كان يحذر الجميع من امكانية ان يكون هناك لغم مزروع في بيوتهم أو عبوة ناسفة . اما الحكومة واعادة الاعمار فمازال الحديث عن هذا مبكراً.